

من القائد العسكري إلى القائد الأسطوري

صورة عقبة بن نافع في الدراسات الغربية

دكتور. علاوة عمارة

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

مدخل:



قد نجم عن توسع رقعة دار الإسلام أن اهتمت العناصر البشرية المكونة لتركيبتها الاجتماعية والثقافية بكتابة تاريخ ارتباطها بهذه الدورة الحضارية الجديدة، وهذا من خلال مجموعة من الكتابات عرفت تراثيا باسم الفتوح، ثم بإدراج تاريخية الحملات العسكرية الفاتحة في كتب التواريخ الجامعة والحوليات الإخبارية في القرون الموالية. لقد شكلت هذه الكتابة المتأخرة بقرابة القرنين عن مرحلة الفتوحات العسكرية المنطلق الأول لدراسة انتشار الإسلام وتشكل نمط الأمة السياسي المتسع الأطراف، وهذا في دراسات العرب وكذلك الغربيين، المعروفين لدينا غالبا بالمستشرقين وأحيانا بالمستعربين.

الموقف الغربي منه لم يكن كذلك إلى غاية أن أصدر الباحث الأمريكي ذو الأصول من الفلسطينية إدوارد سعيد كتابه الشهير الموسوم بـ "الاستشراق" سنة 1978، والذي أثار ضجة وردود أفعال لأقطاب الاستشراق وعلى رأسهم برنارد لويس (Bernard Lewis)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة برنستون (Princeton University) وماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) الباحث البارز في ميدان الدراسات الإسلامية بفرنسا، حول الخلفيات الحقيقية للاهتمام بدراسة الشرق الإسلامي.

وبما أن الاستشراق هو وليد المركزية الأوروبية فإنه اعتمد على خطاب المتفوق (un discours triomphaliste) لتسهيل إدارة الأهالي المسلمين

الاستشراق وتاريخ الإسلام (1)

تعتبر ظاهرة الاستشراق عن علاقة الغرب الفكرية مع عالم الإسلام طوال الفترات التي صاحبت الاحتكاك العسكري والاقتصادي خلال نهاية الفترة الوسيطة، لتعرف بهذا المصطلح بداية من سنة 1799 (2) وقد فضلت توسيع مجال الاستشراق الكلاسيكي ليشمل العالم الغربي بما يحمله هذا المصطلح من معنى إيديولوجي ليشمل الشعوب المندمجة في فلك الحضارة الغربية من القادة العسكريين إلى القادة الأسطوريين — خارج القارة الأوروبية. وبما أن الموقف من الاستشراق قد تراوح بين الرفض والتردد وأحيانا القبول من طرف التيارات الفكرية في العالم الإسلامي، فإن

هذا المنطلق كان اهتمام التوجه الاستشراقي بتياراته الكلاسيكية والمعاصرة في دراسة تاريخ بلاد المغرب والذي كانت بدايته مع محاولة فهم كيف تحولت بلاد البربر *La Berbérie*

إلى بلاد المغرب بهويتها الحالية من خلال التركيز على مرحلة الفتوحات ثم الهجرة الهلالية⁽⁸⁾. ولم يكن عقبة بن نافع مجهولا لدى الغربيين في إطار معرفة خلقيات "الحركة التوسعية" للإسلام في قرونه الأولى. عقبة أو الأسلمة العنيفة في كتابات القرن التاسع عشر:

قد دونت مجريات الحملات العسكرية الإسلامية في بلاد المغرب وفق رؤية إيديولوجية شعبية كرسها روايات مشرقية بعيدة زمانيا ومكانيا عن الحدث، ورواية مغربية تمتد بأصولها إلى الوسط القصاصي القيرواني والبربري، الذي تبلور خلال الأربعة قرون الأولى للهجرة. لقد أضفت هذه الكتابات رؤية ميثولوجية على مجريات الأحداث وتصوير مؤسس مدينة "عز الإسلام" - القيروان - بالإنسان المؤيد "بروح قدس" جديدة من خلال تحرير خطابه لعالم الحيوان. وقد شكلت الروايات المتوالية حول استشهاد عقبة المنطلق الأساسي لمجموعات القصص ببلاد الزاب، وهي الروايات التي ساهمت في بناء ذاكرة جماعية مرتبطة بالشخص والمكان، أدت في النهاية إلى التولية الروحية للقائد عقبة لمدينة تمودة، وترتبط بولاية صوفية ربطت لها بين مصره ومصير البلد الذي أصبح يعرف بسيدي عقبة.

وتبنت الرؤية الإستشرافية هذه الروايات بأسانيداً مختلفة وفق درجة قدرة أصحابها على التعامل مع النصوص العربية خلال الفترات السابقة. لقد حاول التيار التاريخي الفرنسي⁽⁹⁾ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بناء عالم ثقافي مغربي يغوص بجذوره في ماضٍ مرتبط بفلك الدورة الحضارية الغربية بصبغتها الرومانية اللاتينية. وعلى

من طرف الحكومات الاستعمارية. إنه أراد - بحسب تعبير عبد الله العروي - "تشويه صورة الإسلام والروح العربية وتبرير بطريقة غير مباشرة السيطرة السياسية الأوروبية"⁽³⁾. لقد تباينت صورة هذا الشرق - المرسوم من طرف العرب بحسب تعبير إدوارد سعيد - في التيارات المهمة به في البلدان الغربية: بين التركيز على سلبات تاريخ الإسلام كما بدا ذلك عند أغلب المستشرقين الأنجليز، وبين التقليد العدائي والتجديد في الاستشراق الفرنسي، وسيطرة روايتي المركزية الأوروبية في الاستشراق الأمريكي، وتعدد اتجاهات الاستشراق الألماني بسبب تورط ألمانيا في احتلال دول العالم الإسلامي من جهة وتقارب ألمانيا النازية في موقفها من اليهود مع بعض الآراء العربية⁽⁴⁾. لكن ظهرت بوادر أزمة للاستشراق الكلاسيكي بسبب انتهاء مبررات وجوده الاستعمارية مع استقلال الدول الإسلامية وازدياد وزن العلوم الاجتماعية والإنسانية وهذا ما أدى إلى ظهور جيل جديد ممن يهتمون بدراسة الشرق وفق رؤية جديدة أكثر علمية تعتمد أساساً على مقاربات سوسيولوجية وأثنوبولوجية وإثنولوجية ولسانية⁽⁵⁾.

باعتباره ظاهرة ثقافية فإن الاستشراق المعاصر اكتسب صفة الموسوعية الأوروبية في محاولة معرفة الآخر أملاً في فهم صيرورته التاريخية ومن ثم احتوائه وتوجيهه وفق المنظومة الفكرية الغربية⁽⁶⁾. ولهذا نجد أنه يتعامل مع التراث العربي المخطوط منه خصوصاً منذ قرون ويكتب عن تاريخ المسلمين سواء في بلاد المشرق أو بلاد المغرب والأندلس وفق تصور بني اعتماداً على عدة آليات وخلقيات تتعلق بتصوير الآخر⁽⁷⁾ ومن

القيروان ثم قيادته للحملة الكبرى التي وصلها إلى البحر المحيط مرددا المقولة المنسوبة إليه حول إخلاصه في الجهاد. وفسر فيرو انتفاضة كسيلة عليه بشعور المجتمعات البربرية باستبداد عقبة وحاشيته، والتي فسرهما برفض البربر لضلالة أتباع محمد، فكانت الثورة التي كان عقبة أحد ضحاياها. وفند فيرو بالمناسبة الكتابات الأوروبية في القرن التاسع عشر التي روجت لفتح عقبة لبحاية وقتل سكانها⁽¹⁴⁾.

تواصلت الكتابة الفرنسية حول تاريخ بلاد المغرب في فترتها الإسلامية مع التركيز المطلق على إبراز الماضي الروماني للمنطقة. ويعتبر أرنست مرسسي (Ernest Mercier) ، عضو المؤسسة التاريخية الجزائرية والمؤسسة الأركيولوجية لقسنطينة⁽¹⁵⁾ من بين أبرز الوجوه التي تركت بصماتها في الإنتاج التاريخي من خلال العديد من المؤلفات حول تاريخ بلاد المغرب وتاريخ مدينة قسنطينة. فقد ألف سنة 1875 كتابا تحت عنوان: تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية من خلال الوثائق الموفرة من طرف المؤلفين العرب وخصوصا تاريخ البربر لابن خلدون⁽¹⁶⁾، وفي سنة 1888 نشر كتابا آخر حول " تاريخ إفريقيا الساحلية (بلاد البربر) منذ الأزمنة البعيدة إلى غاية الفتح الفرنسي"⁽¹⁷⁾، كما أصدر تأليف سنة 1903 والموسوم بـ"تاريخ قسنطينة"⁽¹⁸⁾ وقد تطرق مرسسي إلى الفتح الإسلامي وركز كما فعل سابقه فيرو على عقبة بن نافع وخصص فصل تحدث فيه عن "الغزوة العربية". لقد عمل عقبة -حسب رأي مرسسي - على إلحاق إفريقية بدمشق مستغلا غياب استراتيجية دفاعية بيزنطية. ووصف هذا المؤلف الفرنسي مؤسس القيروان بالهجر للسكان على اعتناق الإسلام والخضوع التام. ثم تحدث عن حملته الكبرى التي ذكر فيها فشله في اختراق القلاع البيزنطية في الأوراس وسيره بعد ذلك نحو الغرب وصولا إلى

هذا الأساس فقد اعتبر الفتح الإسلامي والهجرة الهلالية كحدث أخرج بلاد المغرب من صيرورتها التاريخية الغربية وربطها بظلام الشرق⁽¹⁹⁾. وعلى هذا الأساس فقد وصف الفتح الإسلامي في مجمله بالظاهرة العنيفة والمخربة في التاريخ أقرب ما تشبه به هو تجاوزه لها لمحجة الوندال، وهذا ما نلمسه من خلال العديد من الدراسات التي أنجزت خلال الفترة والتي حوصلها فيما بعد ليون أدو (Léon Adoue) في مقدمة كتابه حول تاريخ مدينة سيدي بلعباس.

وبرزت في الكتابات غير الأكاديمية في القرن التاسع عشر نزعة معادية للعرب واتهام قادة الفتح بالقتل الجماعي للسكان، وجسد هذا الطرح إدوارد لبان (Edouard Lapène) ، الذي شغل منصب عسكري ببحاية في بداية الاحتلال الفرنسي، والذي اتهم عقبة بن نافع بقتل سكان مدينة صالداي (بحاية فيما بعد) سنة 666⁽¹²⁾ بالرغم من أن عقبة لم يعبر في حملته إلى تلك المناطق.

بزعة أكثر تاريخية من سابقة، تطرق مترجم الجيش الفرنسي في الجزائر ورئيس المؤسسة التاريخية الجزائرية⁽¹³⁾، لورون شارل فيرو (ت 1888) (Laurent-Charles Féraud) إلى الفتوحات الإسلامية مركزا على عقبة وعلى المقاومة المحلية له. فقد اعتبر الفتح الإسلامي للمنطقة بالمنطقي نظرا لعدم قدرة إفريقية على مجابهة الوافد من الخارج لاحتلالها كما كان عليه الشأن بالنسبة للوندال والبيزنطيين. وانتقد الرواية العربية للوقائع واتهمها بتضخيم حجم العدو الذي واجه الجيوش الإسلامية مركزا على عدم مقدرة المجتمعات الريفية البربرية على المجابهة. وركز فيرو على عقبة بن نافع وبناءه لمعسكر

نفس الفترة تقريباً. وترجم عدة روايات منسوبة لمؤلفين مسلمين كـمقولة ابن أبي زيد القيرواني حول ردة البربر، وهذا من باب إبراز رفض المجتمعات القبلية البربرية للإسلام⁽²²⁾. واعتبر كسيلة والكاينة كرمز لبطولة البربر في سبيل استقلالهم زمن "الغزوة" العربية. وقد عبر كذلك على مواقفه المؤيدة للبربر ضد الوجود الإسلامي وهذا انطلاقاً من قراءة وانتقاء لروايات عربية⁽²³⁾. واعتبر هزيمة المسلمين قرب سيدي عقبة بمثابة انتصار بيزنطي وليس بربري، معطياً في الوقت ذاته صورة قائمة عن عقبة من خلال تناول بعض الروايات حول كيفية تعامله مع كسيلة. ليصنع من ذلك أطروحة التعارض الختمي بين البربري المستقر والعربي المتنقل⁽²⁴⁾.

أما جورج مارسي (ت 1962) فإنه ينتسب إلى عائلة مشتهرة بالفن والتاريخ أصلها من مدينة ران (Rennes). وقد عرف بعمله الكبير في ميدان الآثار الإسلامية خصوصاً الخزف وبتوليته لعديد من المناصب بالجزائر الاستعمارية كان آخرها مدير معهد الدراسات الشرقية بمدينة الجزائر. وقد نشر العديد من الدراسات منها "بلاد البربر المسلمة"، والمشرق في العصر الوسيط⁽²⁵⁾، والتي تطرق فيها إلى "فرض الوصاية على بلاد البربر" من طرف العرب.

وقد بدأ جورج مارسي كتابه بعرض مجموعة من المأثورات المنسوبة إلى النبي (ص) حول فضائل بلاد المغرب واعتبر بنجاح "الغزوة العربية". بمثابة انتصار عقيدة متعطشة للاستشهاد والتي من بين رموزها عقبة بن نافع الذي فكرت حوله مجموعة من الحكايات الأسطورية جعلت منه "رمز الإسلام القتالي"⁽²⁶⁾.

وكتب مارسي بأن العرب اعتبروا بلاد المغرب والأندلس بمثابة أرض للغنائم وللأحجار الكريمة التي تحتوي عليها "مائدة سليمان" التي نقلها -حسب الاعتقاد السائد- القوط إلى مدينة طليطلة. وفي

طنجة، وهذا بعد أن أجبر الناس على اعتناق الدين الجديد. ووصل سيره بعد حديثه مع جوليان إلى بلاد السوس الأدنى ثم إلى ساحل بحر الظلمات (الحيط)، ليعود بعدها إلى إفريقية قاتلاً في طريقه كل من وقف في وجهه. ووصف مقتل عقبة بأنه عمل منظم من طرف الأهالي ضده ونتج عن ذلك سقوط القيروان في يد كسيلة الأوري⁽¹⁹⁾. وقد استقى مارسي كل معلوماته عن ابن خلدون مع بعض الإضافات المعبرة عن آرائه اتجاه "الغزوة" العربية.

عقبة صناعة معرفية:

بعد كتابات الجيل الأول من المؤرخين الاستعماريين، جاء جيل آخر أكثر قدرة على التعامل مع النصوص التاريخية مثله على الخصوص إميل فليكس غوتيه (Emile-Felix Gautier) وجورج مارسي (Georges Marçais) الذين كانا لهما اهتمام كبير بالحقبة الوسيطة لمستعمرات فرنسا.

وعرف غوتيه (ت 1940)⁽²⁰⁾ بدراساته حول الصحراء وبلاد المغرب خصوصاً خلال الفترة الوسيطة، وعمل كأستاذ شرقي بجامعة الجزائر. وقد أصدر سنة 1927 كتاباً حول الماضي الجهول لإفريقيا الشمالية بعد الأسلمة⁽²¹⁾. وبمنظرة معادية للعرب، تطرق غوتيه لما أسماه بحملات القرصنة العربية الأولى في بلاد المغرب قبل أن يصل إلى حملة عقبة الكبرى ووصوله إلى الحيط سنة 638 م. من وركز على ما أسماه بالهزائم الساحقة للعرب وطردهم نهائياً بالمنطقة عدة مرات، وإلى "القضاء" على عقبة وأتباعه في تمودة. وحاول عدة مرات مقارنة "الغزوة العربية" مع "الفتح الفرنسي"، اللذان استغرقا

وتواصلت الكتابات الفرنسية حول عمليات فتح بلاد المغرب لصناعة نموذج تاريخي يبين كيف "أظلمت" بلاد المغرب بسقوطها في يد العرب بعد أن عرفت فترة ازدهار خلال الحقبة الرومانية- البيزنطية. فقد نشر كريستيان كورتوا (Christian Courtois) مقالا في المجلة الإفريقية تحت عنوان "من روما إلى الإسلام" والذي همش فيه حركة الفتوحات الإسلامية واكتفى بإبراز

دور المقاومة البربرية: "بعد نصف قرن من المقاومة البطلة، تقبل البربر الحضارة الجديدة كما فعلوا مع روما من قبل. وتحولت المدن، التي تحولت إلى قلاع من قبل، إلى مجرد قصور بربرية"⁽³⁰⁾.

في نفس الفترة تقريبا كتب ألفرد بال (Alfred Bel) دراسة في التاريخ الديني لبلاد المغرب الوسيط تحت عنوان "الديانة الإسلامية في بلاد البربر"⁽³¹⁾ تطرق فيها بإيجاز إلى عقبة بن نافع ودوره في توسيع حركة الفتوحات الإسلامية. وقال بأن هذه الأخيرة تحققت بفضل بناء القيروان على يد عقبة بن نافع سنة 675 م وخصوصا بفضل الحملة العظيمة التي قام بها سنة 681 م والتي وصل فيها إلى تاهرت وسبته التي سلمها له الكونت القوطي جوليان وكذلك طنجة وأوليلي قبل أن يعرج على تارودانت في منطقة السوس وصولا إلى الساحل الأطلسي. ولم يطرح ألفرد بال أي إشكال حول صحة الرواية العربية، واكتفى بالقول بأن عقبة قتل قرب قهوة عند عودته من الحملة سنة 683 م⁽³²⁾. وهذا التاريخ يثير إشكالا آخر حول مدة الحملة المتجاوزة لستين.

بنظرة أكثر تحررا في جانب منها من التوجهات الاستعمارية، تطرق المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان (Charles-André Julien)، الذي كان يشغل منصب أستاذ تاريخ الحركة الاستعمارية في جامعة السوربون⁽³³⁾، إلى الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب في كتابه الموسوم بـ "تاريخ إفريقيا

تحليله لـ "ظاهرة" عقبة، فقد لاحظ عملية ربط كل منطقة مفتوحة بقائد مثالي كعمرو بن العاص في مصر، وسعد بن أبي وقاص بالعراق، وخالد بن الوليد بالشام وطارق بن زياد بالأندلس. وحاول في قراءة ذلك تفسير أسباب تأخر الفتوحات في إفريقية وبلاد المغرب بصفة عامة⁽²⁷⁾.

بعد أن اعتبر الحملات الأولى للفتح بمثابة "حلقة من عمليات النهب"، ركز مارسلي على شخصية عقبة بن نافع ودورها في الفتوحات. فقد اعتبره بمثابة صانع استراتيجية عسكرية في عملية الفتح مستغلا الظروف التي عرفتها بيزنطة بمقتل امبراطورها كونستو الثاني (Constant II) وتعويضه بقسطنطين بوغونا (Constantin)، الذي سحب قواته من إفريقية لمواجهة حركة تمرد في صقلية. وقد تمكن عقبة بسرعة مذهلة من السيطرة على المدن والقلاع البيزنطية و"نهب الممتلكات وقتل قسم من السكان وسبي البقية، ما عدا من بادر بإعلان إسلامه"، وختم هذه العمليات ببناء القيروان عام 670 م⁽²⁸⁾.

وختم مارسلي حديثه عن عقبة بتعرضه إلى حملة عقبة الكبرى التي وصل فيها إلى طنجة وإلى البحر المحيط، مشككا دون رفض الرواية العربية حول صحة ذلك ومركزا على "عمليات النهب" التي ارتكبتها المسلمون. واعتبر عقبة بمثابة "ضحية" لثأر كسيلة عندما قتل رفقة أتباعه بتهودة. وعلى العكس من غوتبيه، فقد اعتبر انتصار كسيلة بتهودة بمثابة انتصار بربريا وليس بيزنطيا. وانتقد مارسلي في الأخير الروايات المقدسة لعقبة واعتبرها أسطورية وركز على دور كسيلة واعتبر أيامه بمثابة "آخر الأيام الجميلة للمقاطعة الإفريقية"⁽²⁹⁾.

الإسلامية في شمال إفريقيا". وانطلاقاً من مصر وبتحالف مع القبائل البربرية تمكن عقبة بن نافع من القضاء على السيطرة البيزنطية وبنى "مستوطنة" عسكرية عرفت باسم القيروان. وبعودته ثانية إلى قيادة جيوش الفتح، نظم حملته الكبرى التي وصل بها إلى البحر المحيط. لكنه لم يتمكن من إخضاع هذه المناطق القبلية البربرية، بدليل كما يقول أن قائدهم كسيلة أفلت من قبضة عقبة ونظم مقاومة موجهة لوقف الزحف العربي، عمل خلالها على توحيد الجهود البربرية مع الحاميات البيزنطية. وكان لعدم يقظة عقبة بتقسيمه لجيشه أن سقط في كمين بتهودة عام 683 م رفقة أصحابه⁽³⁸⁾.

لم يحلل بروكلمان الأحداث ولم ينحز كذلك لطرف دون الآخر وإنما نقل الأحداث كما وجدها في أغلب الدراسات المتوفرة لديه في زمنه.

عقبة في كتابات برونشفيك والهادي روجي ادريس: مع بداية الحرب الأوروبية الثانية برز إلى الوجود التيار التاريخي الفرنسي الأكثر شمولية والأكثر أكاديمية لدراسة تاريخ المغرب الوسيط خلال الفترة الاستعمارية. ويتميز هذا التيار بتوظيفه لكم هائل من النصوص الفقهية في كتابة تاريخ المغرب وبقرائته النقدية للنصوص التاريخية. وتزعم هذا التيار بدون منازع المؤرخ وعالم الإسلاميات روبرت برونشفيك (Robert Brunschvig) وتلميذه الهادي روجي ادريس (Hady Roger Idris) الذين تركا لنا دراستين كلاسيكيتين كانتا

في السنوات الماضية بمثابة المرجعية الأساسية لدراسة الفترتين الزيرية والحفصية. وبالرغم من اهتمامها بفترة تاريخية متأخرة مقارنة مع مرحلة الفتوحات، فإنهما تعرضا إلى دراسة الروايات المتعلقة بالحملات العسكرية العربية. فقد كتب برونشفيك مقالا في "حوليات معهد الدراسات الشرقية في الجزائر" حول "ابن عبد الحكم وفتح العرب لافريقيا الشمالية: دراسة نقدية"⁽³⁹⁾. ونشر الهادي روجي

الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب، من الفتح العربي إلى 1830⁽³⁴⁾ بالرغم من عدم اختصاصه في الفترة الوسيطة، فقد أعطى حوصلة حول الدراسات الفرنسية حول الفتح وقدم آراء حول المادة الخبرية العربية اعتمادا على معطيات صديقه وليام مارساي (William Marçais)، الذي اعتبره أدق المختصين في قراءة المصادر العربية في زمنه⁽³⁵⁾.

ومن هذا المنطلق فقد ذكر بأن الفتح العربي (وليس الغزوة العربية) قد بني على تاريخ قصصي أسطوري من خلال التعرض للروايات العربية الأربع حول فتح بلاد المغرب: الرواية المشرقية (الواقدي)، والرواية المصرية (ابن عبد الحكم)، والرواية الإفريقية (عيسى بن أبي دينار) وأخيرا الرواية الأندلسية (أحد أحفاد موسى بن نصير). وقد أيد جوليان بأن المناطق التي تأثرت بالثقافة الشرقية الفنية كانت الأكثر سهولة في عملية الفتح كما كانت عليه زمن الرومان والوندال والبيزنطيين. ويتعرضه لفترة عقبة بن نافع،

ذكر انتصار كسيلة وقال بأنه كان ييزنطيا أكثر منه بربريا. ووصف سياسة عقبة بالكارثة التي نتج عنها فقد العرب للأراض، التي سيطروا عليها غرب برقة⁽³⁶⁾. عقبة مؤسس "السيطرة الإسلامية" في كتاب بروكلمان:

بنهاية الحرب الأوروبية الثانية، لم تعد الكتابة عن تاريخ بلاد المغرب حكرا على المؤرخين الفرنسيين. فقد ظهرت مجموعة من الكتابات الألمانية والإنجليزية ولو أنها تميزت بالعمومية في أغلبها مثل ما تعرض إليه الباحث الألماني المعروف كارل بروكلمان (Carl Brockelmann) في كتابه الموسوم بـ "تاريخ الشعوب والدول الإسلامية"⁽³⁷⁾ حيث اعتبر عقبة بمثابة "المؤسس الحقيقي للسيطرة

خضوع أو إسلام العديد من المجتمعات البربرية. وذكر كهان في الأخير مقتل عقبة عند عودته من الحملة التي "ربما" قاده إلى المحيط على يد كسيلة الذي نظم حركة مسلحة ضد العرب⁽⁴⁴⁾.

بعد هذه الفترة نجد حضور عقبة بن نافع في الكثير من الدراسات المعاصرة المتعلقة بفتح المغرب خصوصا في العالم الأنجلو سكسوني الذي كسر في النهاية احتكار التيار التاريخي الفرنسي لدراسة تاريخ بلاد المغرب. ومن بين هذه الدراسات أشير فقط إلى عمل كريستايدس (Christides) الذي ألف كتاب حول فتح العرب لليبيا⁽⁴⁵⁾. كما نشر كذلك فليب لوفرنج (Philippe Lefrang) دراسة حول "حملة عقبة بن نافع إلى كوار (46هـ/666)⁽⁴⁶⁾". عقبة بن نافع في الاستشراق الرسمي: دائرة المعارف الإسلامية:

لقد اختارت دائرة المعارف الإسلامية في طبعها الثانية (1954-2000) عقبة بن نافع كمادة من موادها وهذا ما يجعل من مؤسس القيروان كواحد من الأسماء البارزة في تاريخ الإسلام. وقد كلف كريستايدس (Christides) بكتابة هذه المادة والتي تحدث فيها بنوع من الإسهاب عن عقبة بن مولده إلى وصوله أرض إفريقية مركزا في كل مرة على ما ذكرته النصوص المصدرة والدراسات الحديثة حوله. فقد ذكر الروايات العربية التي تورد الأحداث المتعلقة به خصوصا ما كتبه ابن عبد الحكم وابن الأثير والنويري من المشاركة وابن عبد الحليم وابن عذاري من المغاربة. واعتبر هذا الباحث بأن هذه الكتابات بنت وصفها للأحداث على أساس ميثولوجي مستوحى من حملة الإسكندر الأكبر. وتعرض لذكر المناطق التي فتحها عقبة في صحراء ليبيا وبلاد المغرب خلال حملاته العسكرية، ليخلص إلى ذكر نفس المعطيات التي رسمتها الكتابة التاريخية الاستعمارية فيما يخص عقبة و"الغزو" العربية⁽⁴⁷⁾. في انتظار صدور دراسة والتر كيجي:

ادريس دراسة تحت عنوان "فحص نقدي لروايات المالكى وابن عذاري حول فتح إفريقية" وهذا بمجلة أرايكا⁽⁴⁰⁾. وما يمكن ملاحظته حول هاتين الدراستين هو نقد النصوص المبالغ فيها حول سير عمليات الفتح من خلال ما جاء في الرواية المصرية (ابن عبد الحكم) والرواية المغربية (الريق القيرواني). وقد قدم ادريس الرقيق القيرواني (ت 1029/420)، كالمبلور الحقيقي للرواية القيروانية حول الفتوحات، والتي احتل فيها عقبة بن نافع مكانة مهمة. وقد لاحظ تأثر هذه الرواية بالخطاب الحيني والمنافي مما جعلها تبعد شيئا فشيئا عن الوقائع التاريخية. وقد ضرب إدريس عدة أمثلة حول عقبة من خلال هذه الروايات التي أعطت له الدور المحوري في عملية الفتح⁽⁴¹⁾.

العودة إلى نقطة البداية: تعدد صور عقبة: لقد طرحت قضايا جديدة تتعلق بعقبة بن نافع في الكتابات الفرنسية والغربية بصفة عامة. فقد كتب عنه من جديد جورج مارسى في مقال له تحت عنوان "سيدي عقبة، أبو المهاجر وكسيلة" وأثيرت من جديد فرضية عدم وصول عقبة إلى البحر المحيط⁽⁴²⁾. وتطرق كذلك المؤرخ الفرنسي المعروف كلود كهان (Claude Cahen) إلى عقبة بن نافع في كتابه الموسوم بـ "الإسلام من أصوله إلى بداية الإمبراطورية العثمانية"⁽⁴³⁾. الصادر سنة 1968. وقال إن المقاومة البيزنطية كانت صعبة خصوصا بعد سقوط قرطاجة، وبالمقابل شكل البربر مجموعات دفاعية، يصعب علينا معرفة الأحداث بدقة نظرا لغياب مصادر معاصرة لها. لقد كان لبناء القيروان من طرف عقبة بن نافع الدور الحاسم في عملية حركة الفتوحات، مما تبعها من

والاقتصادية. لكن النتيجة هو الاخيرار العسكري السريع لبيزنطة أمام جيوش الخلافة مثلما كان عليه الحال في الشرق. ولم يكن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بالجاهل بالشؤون الإفريقية، فقد سبق له وأن زارها ضمن الحملات العسكرية السابقة لخلافته، وهذه الرؤية كانت غائبة لدى الإمبراطور البيزنطي كونستو الثاني. وانتقد كيحي آراء المؤرخين الفرنسيين القائلين بدور الوندال في تحضير الأرضية للفتح الإسلامي من خلال ضرب الكنيسة الكاثوليكية، واعتبر ذلك من خيالات التاريخ، لأن الانتصار الإسلامي يعود الفضل فيه إلى الإستراتيجية العسكرية للخلافة.

وتأتي مكانة عقبة بن نافع في هذه الدراسة مرتبطة بالإستراتيجية العسكرية الإسلامية لفتح كامل بلاد المغرب خصوصا بعد بئانه للقيروان. وهذا ما أدى بدوره إلى الاستيلاء التدريجي على المدن والحصون البيزنطية. وفشلت الإستراتيجية العسكرية البيزنطية في جلب السكان المحليين إلى صفهم فيما نجح أبو المهاجر دينار في ذلك. ومن خلال المعاناة الميدانية والقراءة الدقيقة للمصادر توصل كيحي إلى أن الطريق الذي سلكه عقبة في حملته الكبرى من القيروان إلى المحيط مرورا بباغاي ولمبيز (Lambèse) وناحية المسيلة (Zabi Justiniana) حتى إلى بلاد المغرب الأقصى، يدخل من القائد العسكري إلى القائد الأسطوري — ضمن الإستراتيجية العسكرية البيزنطية المطبقة بناحية الأناضول وهي ترك المسلمين يتوغلون في الداخل قبل أن تحضر لهم كمائن عند العودة إلى قواعدهم. وهو ما ينطبق على ما قامت به بيزنطة وكسيلة عام 63هـ/683 م حينما تم قتل عقبة وأصحابه. أما هدف عقبة من ذلك هو تدمير الحصون والقلاع البيزنطية في الداخل وهو ما تحقق له في كثير منها⁽⁵⁰⁾

والتر كيحي (Walter E. Kaegi) أستاذ باحث في جامعة شيكاغو الأمريكية وعضو المعهد الشرقي. ويعد من أهم المختصين الحاليين في التاريخ البيزنطي. نشر عدة دراسات حول حركة الفتوحات في بلاد الشام وحول علاقة عالم الإسلام بالعالم البيزنطي⁽⁴⁸⁾ وبدأ منذ عدة سنوات في الاهتمام بفتوحات مصر⁽⁴⁹⁾ وأخيرا ببلاد المغرب. وقد زار للجزائر السنة الماضية وأجرى عدة رحلات استكشافية خلال مدة إقامته التي تجاوزت الشهر والنصف انطلاقا من قسنطينة، زار خلالها عدة مناطق لها علاقة بالحدث خصوصا سيدي عقبة، وطبنة، وميلة، وباغاي. وهو بصدد إعداد دراسة حول الفتوحات تحصلت على جزء منها وقد حرره باللغة الفرنسية.

في هذه الدراسة المعتمدة أساسا على مصادر عربية ويونانية وسريانية، درس والتر كيحي حركة الفتوحات بمقاربات منهجية جديدة تعدت الدراسات الكلاسيكية الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية. وكان لمعرفته الدقيقة بتفاصيل التاريخ البيزنطي العامل المهم في توجيه الدراسة من خلال إبراز دور أطراف النزاع حول إفريقية خصوصا الإستراتيجية العسكرية الإسلامية ومحاولة الإمبراطور البيزنطي القضاء عليها.

بعد الفتح النهائي لمصر، انسحبت جميع الجيوش البيزنطية من ليبيا للوقوف في وجه الحملات الإسلامية عند حدود إفريقية نظرا للنقص المالي والعجز البشري الذي كانت تعاني منه الإمبراطورية البيزنطية، ولهذا نجدها تركز قواها الدفاعية في جربة وقابس وسيبيلة، أملا في الحفاظ على المقاطعة الإفريقية ذات الإستراتيجية العسكرية

الآراء بخصوص عقبة. فلقد دونت مختلف الأحداث العسكرية وفق خلفية حنينية بنيت على أساس انتقال معرفي شعوي مبتور في بعض أصوله التاريخية جعل الحدث التاريخي يحتل بالأسطورة (51).

إن الاستعانة بمصادر أخرى مكمل وليست بديلة يمكن للدارس من تخطي الكلاسيكية الجافة التي واكبت الكتابات التي تؤرخ لبداءات الإسلام في بلاد المغرب، شريطة الاستعانة بآليات جديدة في البحث ومخزون لغوي للوصول إلى رسم الصورة "الأصلية" لعقبة بن نافع الفهري (52).

Seuil, 1980 ; Maxime Rodinson, La fascination de l'Islam, Paris, La Découverte, 1989

3- Abdallah Laroui, Islam et modernité, cité par Rabah Saddek, « L'Islam dans l'orientalisme français » dans al-Mun'af, 14, (1988), p. 1-22.

4- مفيد الزيدي، " الاستشراق والتراث العربي

المخطوط نحو منهجية علمية" اليرموك، 71 (2001)، ص 11-15.

5- حول الاستشراق المعاصر يرجى تصفح العدد الخاص من مجلة العالم العربي في البحث العلمي (Mars) التي يصدرها معهد العالم العربي بباريس:

Orientalismes et altérité, Mars, 4, (1994), p. 7-94.

6- ناصر الدين سعيدوني، "نظرة في قضية الإستشراق" ضمن الجزائر منطلقات وآفاق مقاربات

لقد صور عقبة بن نافع في الكتابات الغربية بعدة أشكال تراوحت بين "قاتل" الشعوب المحلية في كتابات القرن التاسع عشر وبين القائد الميثولوجي في الدراسات الأخيرة. ويرجع هذا التفاوت في تصوير هذه الشخصية إلى انتقال كتابة التاريخ من الهواية المبنية على خلفية ثقافية-عسكرية إلى المهنة الأكاديمية. بداية من النصف الثاني من القرن العشرين. وتطرح كذلك الروايات العربية -المشرقية منها والمغربية- إشكالا آخر ساعد على تعدد

هوامش المقالة:

1- قد قدمت أغلب أفكار هذا العنصر في مداخلتي " قراءة في التجربة الغربية في ميدان التعامل مع المخطوطات العربية" الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات، قسنطينة، 29-30 نوفمبر 2004.

2- مصطلح الإستشراق (orientalisme) استعمل لأول مرة سنة 1799 في المجلة الموسوعية (Magazine encyclopédique) واعترفت به الأكاديمية الفرنسية سنة 1835. ميلاد هذا الاسم يدل على مدى تطور الاهتمام بالثقافات الشرقية موازاة مع تفاقم الظاهرة الاستعمارية. أنظر:

Marcel Boisard, L'humanisme de l'Islam, Paris, Unesco, 1985 ; Edward Saïd, L'orientalisme : l'Orient crée par l'Occident, Paris,

بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 10-13.

Christian Courtois, « Bibliographie de l'histoire de l'Afrique du Nord. Des origines à la fin du Moyen Age » dans Revue Africaine, XCVI, (1952) p. 416-448.

10- أنظر علاوة عمارة، المرجع السابق، ص 38-40.

11- La ville de Sidi-Bel-Abbès, Roidot, 1927, p. 24.

12- Edouard Lapène, Vingt-six mois à Bougie, présentation de Camille Lacoste-Dujardin et Nedjma Abdelfettah-Lalmi, rééd. Paris, Bouchène, 2002, p. 30.

13- Société Historique Algérienne.

14- Laurent-Charles Féraud, Histoire de Bougie, rééd. Paris, Bouchène, 2001, p. 43-44.

15- Société Archéologique de Constantine.

إن ما قام به مارسسي ومن قبله فيرو هو استمرار لمشروع كتابة تاريخ المغرب وفق النظرة الفرنسية الذي بدأه كرات (Carette):

16- Ernest Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs

للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 463.

7- أنظر علاوة عمارة، "قراءة في التجربة الغربية في ميدان التعامل مع المخطوطات العربية" مداخلة بالملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات، قسنطينة، 29-30 نوفمبر 2004.

8- راجع دراساتنا حول المهجرة الهلالية: - "المهجرة الهلالية وإشكالية انخراط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4، (2004)، ص 31-75.

A. Amara, « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval: Le cas du Maghreb hammadide (XI-XII^e siècles) » dans The Maghreb Review, 22-1, (2003), p. 2-26.

9- حول هذه النقطة، أنظر ناصر الدين سعيدوني، "الدراسات التاريخية في الجزائر بين الأمس واليوم" مجلة البيان لجامعة آل البيت، نشر من جديد في ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني،

أما في الطبعة الثانية سنة 1937، فكان عنوانه:
Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1937.

22-Ibid, p. 248.

23-Ibid, p. 266.

24 -Ibid, p. 269.

25 -La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, Aubier, 1946.

26 - Ibid, p. 20-21.

27 -Ibid, p. 27.

28 -Ibid, p. 31.

29 -Ibid, p. 32.

30 -Christian Courtois, « De Rome à l'Islam » dans Revue Africaine, 86, (1942), p. 25-55.

31-La religion musulmane en Berbérie esquisse d'histoire et de sociologie religieuses, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1938.

وقد ترجم هذه الدراسة إلى اللغة العربية عبد الرحمن بدوي وأعطى لها عنوانا آخر هو الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.

32- المرجع نفسه، ص 84.

arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun, Constantine, L. Marle Librairie édition, 1875, 406 p.

17 Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. II, 477 p.

18 Ernest Mercier, Histoire de Constantine, Constantine, Marle et Biron, 1903, 730

19 Ernest Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes, op. cit., p. 57-60 ; id, Histoire de Constantine, op. cit., p. 82-83.

20- ولد إميل فليكس غوتيه بمدينة كلارمون فيرون (Clermont-Ferrand) الفرنسية يوم 29 أكتوبر 1864، تخرج بدبلوم المدرسة العليا وله مجموعة معتبرة من المؤلفات. أنظر:

Marcel Larnaud, « Emile-Félix Gautier (1864-1940) » dans Revue Africaine, 85, (1941), p. 161-169.

21- لقد صدر هذا الكتاب بعنوانين مختلفين. ففي الطبعة الأولى كان تحت عنوان:

L'islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1927.

41 - Ibid, p. 17-18.

42 - Georges Marçais, « Sîdî 'Uqba, Abû-l-Muhâjir et Kusayla » dans Cahiers de Tunisie, I, (1953), p. 11-17. Cité dans Encyclopaedia of Islam, nouvelle édition.

43 - Claude Cahen, L'Islam des origines au début de l'empire ottoman, 1968, rééd. Paris, Hachette, 1995.

44 - Ibid, p. 43-44.

45 - V. Christides, The Conquest of Libya by the Arabs and the thrust of Islam into the Berber land.

46 - Philippe Lefrang, « L'expédition d' 'Uqba ibn Nâfi' à Kawār (46h/666 J. C. » dans Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques, XIX, (1985).

47 - V. Christides, « 'Ukba b. Nâfi' » dans Encyclopaedia of Islam II, Leiden, Brill, vol. X, p. 790a-790b.

48 - Walter Kaegi, Byzantium and Decline of Rome, Princeton, Princeton University Press, 1968.

49 - Byzantine Military Unrest 471-843: An Interpretation. Amsterdam and Las Palmas, 1981.

- Army, Society and Religion in Byzantium, London, Variorum Reprints, 1982.

33 - Professeur d'histoire de la colonisation à la Sorbonne.

34 - Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie, Algérie, Maroc, de la conquête arabe à 1830, rééd. Et mise à jour par Roger Le Tourneau, Paris, Payot, 1952.

35 - لقد نشر وليام مارسى هذه القراءة

في كتاب جماعي صدر سنة

1931. أنظر:

William Marçais, « Le passé de l'Algérie musulmane » dans Histoire et historiens de l'Algérie, Paris, 1931.

36 - Ibid, p. 11-18.

37 - Histoire des peuples et des Etats islamiques, traduit de l'allemand, M. Tazerout, Paris, Payot, 1949.

38 - Ibid, p. 71.

39 - Robert Brunschvig, « Ibn 'Abd al-Hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes : étude critique » dans Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, VI, (1942-1947), p. 138.

40 - Hady Roger Idris, « Examen critique des récits d'al-Mālikī et d'Ibn 'Idārī sur la conquête de l'Ifriqiya » dans Arabica, 11, (1964), p. 5-18.

dans Journal des Sciences, 3, (2004).

- 52 ما زالت صورة عقبة بن نافع مرتبطة

بالعنف في العديد من الكتابات وحتى في الأعمال

الروائية مثلما نجده في آخر كتابات الروائي المغربي

ادريس شرايبي:

« C'est là et nulle part ailleurs que je situais l'action de mon prochain roman, en l'an 680, au moment même où, parti du désert de Tripolitaine à la tête des cavaliers d'Allāh, le général Okba b. Nāfi' allait surgir, messenger pur et dur de la religion nouvelle ». Driss Chraïbi Le monde à côté, Paris, Denoël, 2001, p. 190.

- Byzantium and the Early Islamic Conquests, Cambridge, Cambridge University Press, 1992.

- Walter Kaegi, « Egypt on the eve of the Muslim conquest » in The Cambridge History of Egypt, Cambridge, Cambridge University Press, 1998, vol. I, p. 34-61.

50 - Walter E. Kaegi, « La dynamique de l'expansion musulmane et de l'effondrement de Byzance en face de l'Islam en Afrique du Nord (7^e siècle) » Février 2005 (texte manuscrit).

51 - Cf. Allaoua Amara, « Archives et production du savoir historique au Maghreb médiéval »

